حركة فتح من الولاء للثوابت والحقوق.. الى الهيمنة وعصبية الانتماء

أحمد الحيلة*

■ عبرت حركة التحرير الوطني (فتح) منذ انطلاقتها عام 1965 عن تطلعات وآمال الشعب الفلسطيني في تحرير أرضه المحتلة عام 1948، وعودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم وممتلكاتهم التي هجروا منها.

وتعزز هذا الدور بعدما فقد الشعب الفلسطيني كامل التراب الوطني اثر هزيمة حزيران (يونيو) عام 1967، فكانت حركة فتح، اضافة الى الحركات الفلسطينية الأخرى، المحضن الوطني الحركي القادر على استيعاب آلاف الطاقات الوطنية التواقة للعمل لفلسطين وباتجاهها عسكرياً، وسياسياً، وثقافياً.. خاصة بعد معركة الكرامة التي أبرزت حركة فتح رأس حربة في التصدي للاحتلال.

كانت حركة فتح في تلك الحقبة من مسيرة النضال الوطني متماهية مع حقوق الشعب الفلسطيني، منصهرة في الانتماء الوطني، ففلسطين الوطن لها الولاء والدم والنفس ومقدمة على ما سواها، وهذا ما جعل من الالتحاق بحركة فتح وأخواتها في الساحة النضالية سبيلاً للتعبير عن الانتماء لفلسطين والعمل لها.

هيمنة وعصبية:

اثر الدعوة لعقد مؤتمر دولي في جنيف بعد حرب تشرين الاول (أكتوبر) عام 1973 لمناقشة الصراع العربي ـ الصهيوني، والذي استبعد م.ت.ف من الحضور، شرعت حركة فتح عام 1974، مخافة تغييب م.ت.ف عن التمثيل الوطني للفلسطينيين، في تبني مسار وتوجه سياسي مخالف للاجماع الوطني، ومجانب لنصوص وروح الميثاق الوطني الفلسطيني، علّها تجد القبول الدولي والعربي.

وبدأت الحركة تروج لمشروع التسوية السياسية، ظناً منها أن التسوية، هي الطريق الأقدر على استرجاع الحقوق الفلسطينية، وهذا ما عُبِّر عنه في حينه فيما عرف بالبرنامج المرحلي (برنامج النقاط العشر الذي تقدمت به الجبهة الديمقراطية نيابة عن فتح وبدعم وغطاء منها) الذي أدى الى انقسام الساحة الفلسطينية وتشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مع فصائل أخرى لما عرف بجبهة الرفض، متهمين حركة فتح بالتفريط بالحقوق والثوابت الوطنية.

ورغم فشل مؤتمر جنيف في حينه، الا أن حركة فتح استمرت في تبني البرنامج المرحلي (برنامج النقاط العشر) ثمناً لاعتراف الدول العربية في قمة الرباط عام 1974 بـ م.ت.ف ـ التي تهيمن عليها حركة فتح ـ ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني.

وانطلاقاً من هذا التاريخ 1974، يمكن القول ان الموقف السياسي لحركة فتح ـ المبرر بما يسمى الواقعية السياسية (الانبطاحية) ـ بدأ يصطبغ برؤية خاصة منبثقة عن ذاتية قيادة فتح وتوجهاتها وقناعاتها مبتعداً رويداً رويداً عن الموقف الجماعي الفلسطيني، بل يمكن القول ان فتح استعملت م.ت.ف لتمرير رؤيتها وبرامجها السياسية، واستغلتها لاضفاء الشرعية على مواقفها في ظل اختلال التركيبة التنظيمية للمجلس الوطني الفلسطيني لصالح حركة فتح.

وعلى هذه الخلفية، تراكمت مجموعة من العوامل الاخرى التي بدأت تعزز هيمنة وعصبية حركة فتح على حساب الثوابت وحقوق الشعب الفلسطيني التاريخية. ونذكر من تلك العوامل على سبيل المثال:

× سيطرة حركة فتح على ناصية القرار السياسي في م.ت.ف من خلال نسب «الكوتا» (المحاصصة) التي ضمنت للحركة أغلبية بمساندة عدد من المستقلين الذي يدينون لحركة فتح، اعترافاً منهم لها بجميل تعيينهم أعضاء في المجلس.

× تحكم فتح بقيادة الرئيس الراحل ياسر عرفات بمصادر المال وأصوله، وجهة صرفه.

× عجز بعض الفصائل بقيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عن منع حركة فتح من تمرير سياساتها وبرامجها التنازلية، الأمر الذي عزز الشعور بالاستعلاء لدى حركة فتح على الشركاء في الدم.

× ضعف وتراجع الأداء العسكري المقاوم ضد الاحتلال، الذي كان يمثل أحد أهم القواسم المشتركة في الثورة الفلسطينية والعامل الموحد لفصائل المقاومة.

× نشوب الحرب الأهلية في لبنان عام 1975 والتي شاركت فيها حركة فتح والفصائل المنضوية تحت لواء م.ت.ف، عزز العصبية وروح التفرد والولاء الحزبي والطائفي كثقافة شائعة انعكاساً لواقع الحرب في لبنان.

وبسبب هذه العوامل وغيرها، تعززت العصبية الفتحاوية التي هيمنت وتفردت بالقرار على مدار ثلاثة عقود خلت منذ نشأتها، وكان ذلك في اتجاه معاكس للثوابت والحقوق الوطنية التاريخية التي تبنتها منذ التأسيس وشاركت في تكريسها من خلال صيغة الميثاق الوطني الفلسطيني.

عَودٌ على بدء:

عانت حركة فتح من الضعف والتراجع بعد الاجتياح «الاسرائيلي» للبنان عام 1982 وخروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، وبسبب تعرضها في الاثر للانقسام والاقتتال الداخلي بين فتح «الانتفاضة» أبو موسى، وفتح أبو عمار، ومن ثم تنازع الشرعية بين جناحي الحركة أو شطري الحركة الأم.

ولكن حركة فتح (أبو عمار) وجدت في انتفاضة الحجارة عام 1987 مخرجاً لها من عزلتها في تونس، ومركباً لعودتها الى الساحة السياسية.

فبرغم ضعفها، الا أنها كانت ما تزال تعد نفسها الوريث الأكبر لمنظمة التحرير الفلسطينية الحائزة على الشرعية العربية في قمة الرباط عام 1974.

لذلك سارعت الحركة لاستثمار الانتفاضة، وعقد المجلس الوطني الفلسطيني عام 1988 في الجزائر، وأعلن من على منبر المجلس وبلسان الرئيس الراحل عن «وثيقة الاستقلال» التي أقرت بمرجعية القرارات الدولية ذات الصلة، وبحق «اسرائيل» في الوجود على 78 % من أرض فلسطين التاريخية، الى جانب دولة فلسطينية على ما تبقى من أرض محتلة، «متنازع» عليها حسب قراءة الاحتلال لنص القرار الدولي المثير للجدل (242).

وتواترت التحركات السياسية، وانفردت حركة فتح فلسطينياً وعربياً بتوقيع اتفاق أوسلو عام 1993، في الوقت الذي كانت فيه حركة حماس التي انطلقت مع انطلاقة انتفاضة الحجارة عام 1987 تتجذر في الشارع الفلسطيني وتزداد قوة بفضل عطائها المقاوم وتمسكها بالثوابت والحقوق الفلسطينية التاريخية، رافضة الاعتراف بالاحتلال ووجوده على أرض فلسطين.

واعتبرت فتح التي كانت ترى في نفسها الوريث «الشرعي» وصانع القرار، أن اتفاق أوسلو يعد انتصاراً فلسطينياً بفضل سياستها وواقعية برنامجها السياسي الذي طالما نادت به مخرجاً ومخلصاً وحيداً للشعب الفلسطيني من الاحتلال.

وبعودة فتح وقياداتها الى الداخل حاملة البشائر بتحويل غزة الى سنغافورة، واقامة الدولة الفلسطينية السيدة الحرة، ارتفعت أسهمها وتضاعف رصيدها الجماهيري، وبالتالي تعزز تفردها وهيمنتها على المشهد السياسي الفلسطيني من جديد..

وأصبح المشهد الرسمي والمؤسسي فتحاوياً بامتياز، فقد همشت م.ت.ف بعد أن استعملت لاضفاء الشرعية على اتفاقات أوسلو وتوابعها، وانتزعت صلاحياتها ودورها الوطني الجامع لصالح مؤسسات السلطة الوطنية..

وأصبحت السلطة الوطنية في الضفة وغزة بمؤسساتها وأجهزتها الأمنية فتحاوية الطابع سياسياً ووظيفياً الى حد كبير..

أصبحت السلطة فتح، وفتح هي السلطة وتداخلت الأمور ببعضها ادارياً ومالياً، وتعذر الفصل في كثير من المواضع..

أصبح كل ما تراه وتقرره حركة فتح يعد مصلحة للوطن، وأصبحت مصلحة الوطن بالتعاقد مع فتح..

بمعنى آخر، اختزلت المنظمة في السلطة، واختزلت السلطة في فتح.

وهذا ما حول المشهد من ولاء للثوابت والحقوق الفلسطينية، الى عصبية وانتماء لفتح المهيمنة التي تختزل الصورة في ذاتها.

ولذلك عندما تراجعت حركة فتح وبرنامجها التسووي في انتخابات المجلس التشريعي أمام حركة حماس وبرنامجها المقاوم بارادة شعبية فلسطينية حرة ونزيهة، لم تكن فتح وما زالت، غير قادرة على استيعاب ما حدث لأنها اعتقدت أنها نهاية التاريخ الفلسطيني، وأن برنامجها هو الأوحد والأنسب رغم الفساد والظلم الاجتماعي والتفريط السياسي.

ورغم ما كشفته التجربة من ضرورة عودة فتح وانكفائها لاصلاح الذات بنيوياً وسياسياً على قاعدة المصالح والثوابت والحقوق الوطنية الفلسطينية التاريخية التي ما زال الشعب الفلسطيني يتمسك بها ويحاسب الآخرين على أساسها، الا أن الحركة بعصبويتها الاستعلائية القاتلة، ما زالت تترفع عن الاصلاح، وتعاند وتنكر فشل برنامجها السياسي.

وما الأوضاع الأمنية المتفاقمة في الضفة وغزة بعد الانتخابات التشريعية، بدءا من الخطف والقتل المتعمد لعناصر حركة حماس، والاعتداء على ضباط الأجهزة الأمنية على أيدي مجهولين تارة، وعلى أيدي ما يعرف بفرقة الموت التابعة للأمن الوقائي تارة أخرى، مروراً بالاعتداء يوم الاثنين 2006/6/12 على المؤسسات الوطنية ورمز السيادة الفلسطينية باطلاق الرصاص واشعال النار في المجلس التشريعي ومجلس الوزراء في رام الله.. على أيدي عناصر ومجموعات تابعة لحركة فتح وللأجهزة الأمنية الموالية لها، وحدوث ذلك بالتزامن مع اصرار الرئيس أبو مازن على دعوته للاستفتاء على وثيقة «الأسرى» ـ حتى بعدما انسحب كل من أسرى حركتي حماس والجهاد من الوثيقة ـ التي تخدم برنامج وخيار فتح السياسي، الا محاولة انقلابية يائسة من حركة فتح على الشرعية والديمقراطية الفلسطينية، ـ تحركها روح الهيمنة والتفرد والعصبية ـ لاعادة الزمن الى الوراء رغم حجم التغير والتطور الحاصل على الساحة الفلسطينية العصية على الجمود.

* كاتب وباحث فلسطيني

بعد دارفور: السلام ينتظر مصالحة الجميع

د. الصادق الفقيه*

■ تعتبر الحرب والسلام ظاهرتين متلازمتين منذ فجر التاريخ. اذ تخلق الحرب تعقيدات ورواسب تاريخية وحساسيات طويلة المدى. ومن السذاجة أن نتصور ان الاتفاقيات تحول فورا علاقات المتخاصمين من العداء الى التآخي والصداقة. فالقضية محكومة بشكل التسوية ودرجة العدالة والتوازن فى الاتفاق وانعدام الاجحاف. لأن الحياة تقوم على روح التعايش والخضوع لمبدأ الضرورة. وتنتصر الانسانية في النهاية بالتسامح والغفران والقدرة على النسيان والتأسيس لثقافة السلام. لأن ثقافة السلام تضع أسُس البقاء والاستمرار والالتقاء والاستقرار والتطور.

بيد أن الحرب تذكرنا دائما بدرجة الوحشية والعنف التي يمكن أن يصلها عقل الانسان متى ما كان معبأ بالأحقاد والجهل والتعصب والأطماع. فالحرب هي الدليل القاطع على عجز العقل البشري عن ايجاد حلول عقلانية لشاكله. وهي أسوأ احتمال نلجأ اليه حين يعجز تفكيرنا عن ايجاد البدائل الأخرى. فقد نشبت كل الحروب بسبب التنكر للمثل الانسانية العليا ومبادئ العدالة، التي تنادي بالكرامة الانسانية والمساواة وتقدير الذات واحترام الآخر.

ولقد وجدت حاجة الانسان للسلام منذ الأزل. ومنذ أن وجد الانسان ذاته مثلت قضية السلام شرطا أساسيا لوجوده الكريم وارتقائه. لهذا، فان ثقافة السلام لا تتم فوقيا وقسريا وانما بالتراضي الأخلاقي، لأنها ثمرة انسانية الانسان والنتاج الروحي للترابط الفكري والعملي، أو الفعل المعبر عن الارادة الانسانية عبر تلاقح الفكر والثقافة والعمل.

ويعرف السلام، باجمال عام، بأنه حالة يخلو فيها المجتمع من الحروب والنزاعات، أو بأنه حالة من الأمن والاستقرار تسود البلاد وتتيح التطور والازدهار للجميع. وقد يبدو ذلك أملا ومطلبا جماهيريا حاضرا، أو قد يبدو حلما «طوباوياً» بعيد المنال، تتعذر لبلوغه الحجة وتتقطع الأسباب ويتقاعس للاقناع بمبرراته المنطق، اذ لا تخفى حالةُ السودان اليوم على أحد. ولكنه العزم على الوصول الى الغايات، والسلام كان وما يزال هدفا وغاية.

فكلّنا يتوق الى الأمن والسلام، وكلُّنا يدَّعي أنه يعمل من أجل السلام والحرية والتقدم. ولكن، أين نحن من حقيقة السلام؟ السلام الحقيقي؛ السلام الذي يأبى سفْكَ الدماء ويرفض التدمير، السلام الذي تعزِّزُه الالفةُ ويعزِّزُ المودةَ؛ السلام الذي هو أصل كلِّ حضارة وكلُّ تقدُّم وازدهار.

قد يكون تفكيكُ بُنية العنف وثقافة، أو ثقافات، العنف هي الخطوة الأولى المطلوبة؛ وتفعيل، في موازاة ذلك، دورِ نشطاء السلام الذين يبثُّون الوعي بالسلام، وينبِّهون الى مخاطر الحروب اللامحدودة؛ وافساح المجال أمام جمعيات المجتمع المدني لتعمل، الى جانب مؤسَّسات الدولة، على درس النزاعات القائمة، ووضع الحلول والمقترحات، والتدخل بشفافية من أجل وضع حدٍّ لهذه النزاعات، والعمل الفاعل من أجل صنع السلام.

ومعلوم أن صنع السلام يعنى البحث الخلاق عن حلول واقعية وناجعة ودائمة للنزاعات: أولاً، من خلال جمع الزعماء والقادة على طاولة المفاوضات؛ وثانياً، بالانتقال الى العمل في العمق، أي تغيير الرأي العام باتجاه العمل السلمي، والضغط على القادة في هذا الاتجاه. وهنا يبرز دورُ نشطاء السلام في بثِّ هذا الوعي، باستخدام ما تتيحه المنابر العامة ووسائل الاتصال الحديثة لتفعيل هذا الدور وللفْت الرأي العام الى فوائد السلام الآنية والمستقبلية. وستَساهم ثقافةُ السلام في بناء السلام الثابت والدائم، لأنها ستغير من أسُس العنف الاجتماعية والايديولوجية والدينية والسياسية والعرقية.

ويعني حلُّ النزاعات بالوسائل السلمية الوصول الى تغيير جذري وحقيقي في موقف الأطراف المتنازعة. وتعلِّم ثقافة السلام حلَّ النزاعات في اطار قومي ديمقراطي. وهذا يقتضي مراجعة تطوير العلاقات لكي تصبح أكثر فاعلية وقدرة على التدخل، اذا اقتضت الضرورة. ولا بدَّ من احتواء العنف، وأن يعمل، بالتوازي، نشطاءُ السلام لصنع السلام وبنائه.

اذ لا يمكن فصل بناء السلام عن ثقافة السلام، لأن السلام ليس بنية نهائية. ثقافة السلام تجعل من السلام بنية دينامية، تمنع نشوء النزاعات أو تجعل حلَّها ممكناً بالطرق السلمية، دون اللجوء الى العنف. ثقافة السلام تغيِّرنا من الداخل، وصولاً الى حالة يتحلَّل فيها العنفُ البنيوي، ليعبِّر الانسان عن طبيعته الجوهرية التي تضعه على طريق التطور الطبيعي صوب غاية الوجود العليا.

ان العمل من أجل السلام قائم وحقيقي. وعلى الجميع تعميقه وتوسيعه، والعمل المستمر من أجل ذلك دون ملل أو كلل، ودون أن نترك لليأس مكانا في النفوس. فقد تبدو آفاق السلام أحيانا بعيدة، ولكننا كنا نسير صوبها بخطى ثابتة ومتسارعة حتى بلغت بنا نهايات نيفاشا وأبوجا... وغدا أسمرا.

لأن ثقافة السلام أو قيم السلام فعل تراكمي من البناء المادي والمعنوي وخلاصة الوعي بالحقوق والحريات وتطور الانسانية. وشرط بناء ثقافة السلام المصالحة الوطنية وهذا يتطلب ارساء المؤسساتية المدنية والاعتراف بالآخر هوية وطنية مستقلة وكيانا ثقافيا متميزا ووجودا كاملا.

ان الوصول الى سودان يخلو من النزاعات هي حالة السلام السلبي؛ ونحن نطمح الى الوصول الى حالة السلام الايجابي الذي لا تنشأ فيه نزاعات. وان ظهرتْ نزاعاتٌ حُلَّتْ بالطرق السلمية. لأن فعل وخلق حالة السلام تحقق التطور الدينامي الفاعل، الروحي والمادي.

ان ثقافة السلام تعني النموذج الوطني والاقليمي للديمقراطية وتعني التعددية وتداول السلطات والسياسية ومهدد لها. ولا يتحقق السلام في ظل اتساع ساحات الفقر والعوز والمرض والأمية والتشرد وتزايد البطالة والعطالة والتذمر الاجتماعي.

لهذا، يجب ترك ايديولوجية الكراهية والاستعلاء، وعلى الجميع أن يتطهروا بثقافة السلام. ويجب أن يمارسوا فكرة السلام والايمان بها، وأن يعبروا عن رفضهم للظلم لأن هذه هي مداخل مسيرة البناء والاستقرار ورسم معالم المستقبل الآمن والسعيد. ومن بعد يأتي التغني بقيم البطولة، والرجولة، والديمقراطية والحرية والأمن وجمال الوطن وقدسيته، وأن نحسن مزاولة مهنة القبض على جمر القضايا العادلة، وأن ننشد الحقيقة، والتصدي لأعداء الحياة وحقوق الانسان باعتبارهما السبيل الوحيد لاصطياد الحق وانجاز السلام مع العدالة.

ويفترض العمل الجدي من أجل السلام تسليطَ الضوء على العديد من المؤسَّسات الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية واقتحام محرماتها الشائهة. ويتطلب كلُّ ذلك دراسة الوضع السوداني، من منظور كلِّي، وليس فقط من منظور جهوي. اذ لا يكفي النظر الى البلاد على أنها منظومة من العلاقات بين أقاليم وولايات أو مجموعات من القبائل، فالسودان يجب أن يكون وحدة عضوية، حية، متعالية، ما يحدث فى جزء منها، أو ما يصيب جهة بعينها، ينعكس بشكل ما، عاجلاً أم آجلاً، على الجميع. فالحروب ليست قدَرَنا، لأن مستقبلنا هو السلام العادل والمستدام.

* كاتب من السودان

من انجازاتها انقطاع الكهرباء والمياه وسرقة النفط وتكريس الطائفية واستفحال العنف: في وداع حكومة الجعفري!

د. عبد الحميد الكاتب*

■ بعد أن تمت الانتخابات وأعلنت نتائجها بزمن ليس بالقليل جاءت تشكيلة حكومة المالكي لتعلن انتهاء حكومة الجعفري بشكل رسمي، وفي هذا الوقت الطويل كنا ننتظر اقامة حفل توديع لحكومة الجعفري، فقد اعتدنا الاحتفال عند التوديع والاستقبال، لكن لما طال الانتظار وتحقق يقينا أنه لن يكون هناك حفل توديع أحببنا أن نقتصر في توديعه بهذه الكلمات.

لقد كانت حكومة الجعفري حافلة بالانجازات، وتركت بصماتها على أرض العراق بشكل لن ينساه الشعب العراقي، بل تعدى أثرها الواقع العراقي الى بعض دول المنطقة، وربما لن نستطيع الاحاطة بجميع ما قامت به تلك الحكومة لكن لن يمنعنا ذلك من استذكار الأهم وما بقي فهو محفوظ في ذاكرة التاريخ محفور على تراب العراق وذهن العراقيين، والأيام كفيلة بكشف جميع الخفايا واعلانها على الملأ.

فعلى صعيد الخدمات الأساسية للمواطن أثبتت الحكومة عجزها التام عن تحقيق أضعف أنواعها، فقد وصلت ساعات قطع الكهرباء في بعض الأيام الى أربع وعشرين ساعة في اليوم، وأحيانا تتحسن لتكون ساعات القطع عشرين ساعة في اليوم الواحد فقط، أما مياه الشرب فرغم تمتع العراق بنهرين يجريان من شماله الى جنوبه الا أن الدولة عجزت عن ايصاله الى الكثير من أحياء بغداد، وازدهرت تجارة الماء في بلاد الرافدين، ونجح التجار في بيع الماء في حارة السقائين، أما الوقود ـ الذي يملك العراق ثاني احتياطي منه في العالم ـ فقد انحصر وجوده اما في باطن الأرض أو مهربا الى الخارج، فقسم منه ينتظر استخراجه على يد شركات البترول الأمريكية المتوقع سيطرتها على آبار العراق، والقسم الآخر يتقاسم تهريبه الاحتلال والجارة ايران وبعض الميليشيات (العراقية)، أما المواطن فقد كان حظه ساعات طويلة جدا في طوابير الوقود، أو السوق السوداء التي تجاوز سعر اسطوانة الغاز العشرة دولارات، فضلا عن انتشار اسطوانات غاز قادمة من الجارة ايران سريعة الانفجار.

أما على الصعيد الأمني فقد شهد العراق أشد حالات العنف والارهاب، رعب لم يشهدوه حتى في أيام (أبو طبر) ولا في أيام الحكم (الديكتاتوري) أيام (المقابر الجماعية)!، فالقتل على الهوية وبشكل علني وفي وضح النهار، والتعذيب بصور بشعة تشيب لها الولدان، والسجون والمعتقلات منتشرة في أرجاء البلاد بكامل خدماتها من مسالخ بشرية ودريلات ونحوها، وأصبح المواطن لا يأمن على حياته أو ماله ليلا أو نهارا، واشتهر العراق في هذه الحقبة بما يسمى (فرق الموت) التي تجوب شوارع العاصمة ليلا ونهارا. وطيلة فترة تلك الحكومة لم تستطع انجاز أي تحقيق ادعت أنها ستقوم به، فشهداء الجسر في الكاظمية الذين تجاوزوا الألف، ومعتقل ومسلخ الجادرية ووو، جميعها تحقيقات لم تخرج بنتائج، وبقي الفاعل مجهولا في بعضها، وفي بعضها الآخر رغم اعتراف الفاعل أمام الاعلام الا أنه لم يعاقب بل تمت مكافأته في الحكومة اللاحقة، أما سجن أبي غريب وما جرى فيه من جرائم على يد المحتل فقد طويت صفحاتها بكل بساطة.

ولن نتحدث عن الجانب السياسي في أيام حكومة الجعفري، فهو جانب واضح المعالم لكل متابع للحدث، فقد تكرست الطائفية وأصبحت مظهرا لا يتجزأ عن المشهد السياسي العراقي، والاستفتاء على الدستور والانتخابات التي تمت في ظل هذه الحكومة وتحت حماية ورعاية قوات الاحتلال كانت خير دليل على فشل الديمقراطية، فقد كتب الدستور بأيد غريبة عن العراق، وزورت نتائج الاستفتاء عليه بشكل واضح وصريح، أما الانتخابات فقد كانت جميع مفاصلها مخالفة للمعلن من قوانين اللعبة الديمقراطية التي يتبجح الغرب بها، فترهيب الناس واجبارهم على المشاركة والتصويت لجهة معينة ثم التزوير في النتائج كانت السمة البارزة لتلك الانتخابات.

أما فيما يخص الاحتلال فقد سعت الحكومة جاهدة على ترسيخ وجوده، فقد أصبحت قوات الاحتلال بفضل الحكومة (قوات صديقة) حيث ينسب لهم الفضل في (تحرير البلد من الديكتاتورية)، وبات بقاء هذه القوات ضرورة لا استغناء عنها (لحفظ الأمن)، وأمنت الحكومة لهذه القوات بناء أكبر القواعد العسكرية، ولم يقف أمام الاحتلال أي شيء الا الضربات الموجعة للمقاومة العراقية ـ التي يعتم الاعلام عليها ـ.

هذا فيض من غيض وما خفي كان أعظم، والمسلسل مستمر لأن حكومة الجعفري انتهت شكلا لكنها باقية مضمونا، فالحكم بيد ذات الأحزاب التي اشتركت منذ البداية في لعبة الاحتلال السياسية، والوزراء أنفسهم وان تبدلت مواقع بعضهم، والداخلية بقيت تحت الاشراف المباشر للحكيم وتنفذ فيلق بدر فيها، وعليه فسياسة (الدريلات) مستمرة ولا شك، أما الدفاع فلا يزال من حصة السنة حيث اختاروا أحد أبرز الوجوه التي شاركت في ابادة السنة في الفلوجة، وهو خير خلف للوزير السني السابق (سعدون)، والمتوقع اذا أن يثبت على منهج سلفه في محاربة (الارهاب) ـ أي المقاومة ـ وسيسعى جاهدا في تحقيق الأمن ـ لكن للمحتل فقط ـ.

وقبل هذا وذاك فرئيس الحكومة الجديد (المالكي) هو نائب (الجعفري) في حزب الدعوة، كلاهما يحملان فكرا واحدا، وكان لايران الفضل عليهما في ايوائهما وتمويل حزب الدعوة ورعاية أتباعه، وهما ان اختلفا في شيء فلا يختلفان في تأييد الاحتلال والترحيب به والاعتراف بفضله عليهما، ويتفقان تماما على ضرورة بقائه في العراق حاكما وسيدا، ويذعنان كلية لأوامره طاعة عمياء فهو السيد وهم له من العبيد.

ولأجل هذا ربما لم يكن من داع لاجراء أي حفل توديع لحكومة الجعفري، فالحكومة مستمرة لم تودع كراسي الحكم بعد، واختلاف بعض الديكور لا يعني تغير المكان، وتغير الزمان لن يغير العمل، وليس أمام العراقيين الا الصبر والأمل في يوم يفشل فيه الاحتلال بكل مشاريعه، حينها فقط سيسقط مع الاحتلال أذنابه، وعندها فقط سينعم العراقيون براحة البال، وعندها يحين موعد الاحتفال.

* كاتب من العراق

قائد الحركة الطلابية الذي شتمه السادات في خطاب له
رحيل احمد عبدالله: مات المناضل المثال!

اكرام يوسف*

■ عندما كنت في السنة الأولى بالتعليم الثانوي، لفت نظري أن رئيس الجمهورية وقتها (السادات) تعمد في أكثر من خطاب له سب طالب جامعي بعينه، خلال حديثه عن انتفاضات الطلبة المتتالية التي كانت تطالب بالتحرك لاسترداد الأرض التي ضاعت في 67. ولاحظت أن أعصاب السيد الرئيس كانت تبدو متوترة وعيناه تجحظان وعروق رقبته تنفر على نحو تضيع معه هيبة المنصب الذي يشغله وهو يتحدث عن طالب الجامعة الذي يعنيه.. ودهشت كثيرا من الأمر حتى أنني قلت لوالدي وقتها «ازاي رئيس جمهورية يعمل عقله بعقل طالب في الجامعة لن يزيد عمره عن 22 سنة؟» من يومها بدأت أتابع باهتمام يوميات الحركة الطلابية في مصر، حتى أنني كنت أتعجل مرور الأيام للالتحاق بالجامعة ونيل شرف المشاركة فيها.

وعندما التحقت بالجامعة فوجئت بأن كثيرا ممن يعرفون أنني التحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، يقولون لي «ها أنت التحقت بكلية أحمد عبد الله».. كان يومها قد ترك الجامعة وسافر للدراسة بالخارج لكن سيرته العطرة واحترام الجميع له ظلا يمثلان لنا نحن طلبة كليته فخرا وزهوا.. والتقيت بزملاء من أبناء حي عين الصيرة علمت منهم أن أهالي الحي ما زالوا يذكرونه بالخير، ومن أجله يفعلون كل شيء لحماية الطلبة المناضلين أبناء الحي من أي تحرشات بوليسية، بل ويسارعون الى تنبيههم ومحاولة تهريب من يعرفون أن «عسس» السادات يلاحقونه..

ظل أحمد عبد الله بالنسبة لي رمزا مقدسا رسمت له صورة في خيالي أحببتها واحترمتها للحد الذي تمنيت معه ألا ألتقي به شخصيا على أرض الواقع أبدا!!.. كنت أخشى أن تكون تلك الصورة التي رسمتها له أجمل من صورته الواقعية، وأن أصدم عندما تنتقل الصورة من خيال الى واقع مادي ملموس..

وعندما قرأت خبرا في جريدة «الشعب» المصرية فحواه أن الدكتور أحمد عبد الله رزة أصدر أطروحته التي نال عنها درجة الدكتوراه من لندن في كتاب عن الحركة الطلابية المصرية.. تمنيت في نفسي أن تتاح لي فرصة ترجمة هذا الكتاب، لكنني طردت الفكرة من رأسي بعدما توقعت أن يقوم هو بنفسه باعداد طبعة من الكتاب بالعربية. ثم فوجئت بعد أيام بالأستاذ صلاح عيسى الذي كان مشرفا على سلسلة كتاب الأهالي يرسل لي ليكلفني بترجمة الكتاب.

فكانت فرحتي لا توصف. وجاءت اللحظة التي لم أكن أتمنى حدوثها حتى لا تهتز الصورة الخيالية، قابلت الدكتور أحمد عبد الله أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه الخاصة بالدكتور وحيد عبد المجيد.. وعرفته بنفسي وأنني المكلفة بترجمة كتابه.. وصارحته أنني لم أكن أحب أن أقابله في الواقع حتى لا تهتز صورة رسمتها في خيالي فضحك كثيرا على اندفاعي في الكلام؛ وعندما عرفته عن قرب اكتشفت أنه في الواقع أجمل كثيرا مما رسمته في الخيال.. ولا شك أن أهالي عين الصيرة أكثر معرفة به وأكثر حبا .. هؤلاء الذين حرص على أن يهدي اليهم أول كتبه «الطلبة والسياسة في مصر» في طبعته الانكليزية التي رصعها بكلمات تنضح صدقا ونبلا وامتنانا، ما زلت أحفظها عن ظهر قلب:

«الى أهالي عين الصيرة الكرام.. الأمين الذين علموني، والفقراء الذين أغنوا ضميري» وعندما عرفت أنه رشح نفسه في الانتخابات الماضية نائبا عن حي مصر القديمة كتبت أقول «فمن اذا يكون الأحق بتمثيل هؤلاء؟.. ان لم يكن هذا الابن البار والرمز الجميل؟ ذلك الذي أصر على أن يقيم بينهم مركز شباب الجيل لرعاية شباب الحي رافضا اغراءات التمويل الأجنبي في وقت تهافت فيه الكثيرون وأحنوا رؤوسهم وتنازلوا عن أشياء أغلى كثيرا مقابل دولارات تأتي من وراء الحدود.. أعتقد أن رجلا كهذا لم يكن بحاجة الى حملة انتخابية لو لم تكن الأوضاع مقلوبة.. فأمثاله يستحقون أن يذهب اليهم الناس ليكلفوهم بتمثيلهم.. فهو الأحق بأن يمثل هؤلاء الفقراء الذين أغنوا ضميره فعلموه فضيلة الاستغناء والتعالي عن مكاسب مادية زائلة انحنت أمامها أعناق كثيرة» وظل «أحمد عبد الله» بين القابضين على جمر عشق الوطن والعدالة والحرية.

وقبل عام استضافته قناة الجزيرة متحدثا في أحد برامجها. ولما كان زوجي ـ الذي يعمل بنفس القناة ـ يعرف مدى ما أكنه من معزة لهذا «الرمز الجميل»، فقد أصر على أن يصطحبه عند عودته للبيت ليتناول عشاءه معنا.. كم كان بسيطا وكريما ونبيلا كعادته! وبالأمس عدت للمنزل بعد عملي في ساعة متأخرة من الليل ليفاجئني زوجي الذي حار في اختيار الكلمات قائلا «أحمد عبد الله...» ولم يكمل.. دق قلبي بعنف وأنا أتساءل: رحل؟ أجمل «أزهار البساتين» الذين كتب عنهم أحمد فؤاد نجم قصيدته «أنا رحت القلعة»؟ رمز الحركة الوطنية المصرية وملهم شباب جامعاتها وباعث نهضتها بعد نكسة 1967 حتى الآن؟ المناضل والباحث والمفكر والناشط لخدمة فقراء مصر وشبابها؟ الذي لم تغيره السنوات ولم يتعال أو يترفع عن الفقراء بعدما أصبح معروفا كخبير في مجال العلوم السياسية على المستوى الدولي وزار معظم أجزاء العالم ويتحدث عددا من اللغات؟ ..لم أره في أي مناسبة يتعمد ارتداء ملابس فاخرة، ولم يمتلك سيارة حتى آخر يوم في عمره. لم أره في ندوة أو مؤتمر أو حوار تليفزيوني يتعمد استخدام مصطلحات ضخمة أو حشر كلمات أعجمية في حديثه؛ مثلما يفعل من هم أقل منه ثقافة وعلما..كان غنيا عن كل ذلك لأنه استغنى عن أطماع الدنيا وزهد فيها، ولأن فقراء شعبه «أغنوا ضميره». رحمك الله يا أحمد.. لن ننساك.. ولن ينساك تاريخ الحركة الوطنية المصرية ولن تنساك مصر التي كنت ورفاقك في «اللجنة الوطنية العليا للطلبة» باعثي يقظتها في الثلث الأخير من القرن العشرين.. منذ سمعت الخبر المفجع وأنا أردد لنفسي كلمات نجم «مات المناضل المثال.. ياميت خسارة عالرجال» وأعزي نفسي بكلماته أيضا مات بس فات للأمل ..

فوق الطريق علامات..
لو سار عليها العمل..
طول الطريق بثبات..
تهدي الغريب سكته..
وتقرب المسافات.

* كاتبة من مصر
ekramegypt@yajoo.com

وإذا هدى سُئلت..!

جواد البشيتي*

■ أيُّ ذنب هذا الذنب الذي ارتكبته الطفلة هدى ابنة العشرة ربيعا حتى ترجو أباها، عند دفنه، أن يسامحها؟!

كانت هدى تسبح في البحر عندما انطلقت منه القذائف لتسقط على الشاطئ، فتقتل أباها وأمها وأخاها الرضيع هيثم وأختاها هنادي (عامان) وصابرين (4 أعوام).

إنَّ ذنبكَ ـ يا هدى ـ لا يُغْتَفَر، فوالدكَ وعدكَ أنْ يأخذك مع والدتك وأخيك هيثم وأختيك هنادي وصابرين في نزهة إلى البحر وشاطئه إذا ما نجحت في امتحاناتك المدرسية؛ وقد برَّ بوعده. أمَّا أنت فوعدتيه أنْ تظلِّي بجانبه، ولا تذهبي إلى البحر وحدك، فالبحر غدَّار، وهو يخشى عليك منه؛ ولكنك لم تفي بوعدك، فكان الذي كان، وما عليك بعد الآن إلا أن تقضي عمرك كله تسألينه المسامحة والغفران..

إنَّ كل هذا البحر من الدموع الذي تفجَّر من عينيك، وصرختك المدوية في البرية «لا تتركوني وحدي»، وغيابك عن الوعي غير مرة، وضربك على رأسك وصدرك، ودفن وجهك في الرمل، وحتى تقبيلك وجه والدك وهو يمضي بعيدا عنك في تراب القبر، لن يشفع لك.

قد نغفر لك كل تلك الذنوب الكبيرة أيتها الصغيرة، ولكننا لن نغفر لك أبدا ذنب بقائك على قيد الحياة، فأنت بنجاتك من الموت أعلنت موت خير أمة أُخرجت للناس، وإنْ ظلَّت تأبى الاعتراف بموتها قبل دفنها، ورسمت بالدمع والدم على جبينهم العار.

كنا نشفق على «الموؤدة»، فلْنَشْفق عليك يا هدى، فإذا هدى سُئلت بأي ذنب بقيت على قيد الحياة!

هَدى بالله عليك لا تصرخي، فصرختك مزَّقت سمع والدك، ولكنها لم تقع على أسماع تشبه سمعه، أو سمعك، فهؤلاء بعضهم، أي أكثريتهم، جثة هامدة، وبعضهم، أي أقلهم الحاكمة المتحكمة، إنما هم بروتوس مع أبنائه وأحفاده، لا خناجر في أيديهم سوى خنجر الخزي والعار الذي أورثهم إياه.

لا تسألي عن دماء عائلتك، فه